

## الاستشراق والدراسات الجغرافية عند المسلمين

بقلم : الدكتور عبد القهار داوود العاني  
الاستاذ في كلية التربية

بسم الله الرحمن الرحيم

لقد حث الاسلام على السياحة في الأرض والتفكر في خلق الله تعالى ليكون ذلك سبباً في العلم وزيادة الايمان واليقين ، قال الله تعالى : ﴿ قل سيروا في الأرض فأنظروا كيف بدأ الخلق ثم الله ينشئ الآخرة إن الله على كل شيء قدير ﴾<sup>(١)</sup> وقال تعالى : ﴿ التائبون العابدون الحامدون السائحون الراكعون الساجدون الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر والحافظون لحدود الله ﴾<sup>(٢)</sup> وقال تعالى : ﴿ ان في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الألباب الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم ويتفكرون في خلق السموات والأرض ربنا ما خلقت هذا باطلاً سبحانه فقلنا عذاب النار ﴾<sup>(٣)</sup> .

ولهذا وجدنا المسلمين ومنهم العلماء جابوا الأرض وزاروا البلدان ووصفوها رغم ضعف واسطة النقل والمخاطر التي يواجهونها في اسفارهم مما هو مدون في كتب الرحالة.

يقول "لوبون" (ريادات العرب الجغرافية):

كان العرب من السياح المقادير في كل وقت وكانوا لا يخشون المساوف والمراحل واليوم أيضاً نراهم يأتون مكة من أقصى البقاع ويجوبون بقوافلهم داخل أفريقيا كأمر بسيط فيصادفهم فيها الأوربيون الذين لا يبلغونها إلا بشق الأنفس.

وكان للعرب منذ السنين الأولى من قيام دولتهم علاقات تجارية بما كان الأوربيون يشكون في وجوده من البلدان كالصين وبعض البقاع الروسية ومجاهل أفريقيا... الخ ومن اشتهر في السياحة وتدوين أحوال البلدان الناصر سليمان في سياحته لبلاد الصين فقد أبحر سليمان من مرفأ سيراف الواقع على الخليج العربي حيث كانت تكثر المراكب الصينية وجاوز المحيط الهندي وبلغ شواطئ بلاد الصين وكتب رحلته في سنة ٨٥١م ثم أكمل أحد ابناء وطنه أبو زيد كتاب هذه الرحلة في سنة ٨٨٠م

ةأضاف إليها معارف أخذها من عرب زاروا بلاد الصين وكتاب سليمان الذي نقل الى اللغة الفرنسية في أوائل القرن الأخير هو أول مؤلف بشر في بلاد الغرب عن الصين. واذا كان سليمان باحثاً عادياً فغير ذلك شأن المسعودي<sup>(٤)</sup> الشهير الذي ولد ببغداد في أواخر القرن التاسع من الميلاد فقد قضى المسعودي خمساً وعشرين سنة من حياته في الطواف في مملكة الخلفاء الواسعة وفي الممالك المجاورة لها كبلاد الهند وقيد ما شاهده في تأليفه الكثيرة المهمة التي نعد "مروج الذهب" أشهرها قال المؤرخ العربي العلامة ابن خلدون الذي ذكرناه غير مرة والذي ظهر بعد المسعودي بأربعمائة سنة ما يأتي:-

" فأما ذكر احوال العامة للافاق والاحيال والامصار فهو أس للمؤرخ تبنى عليه أكثر مقاصده وتبين به أخباره وقد كان الناس يفرّدونه بالتأليف كما فعله المسعودي في كتاب مروج الذهب شرح فيه أحوال الأمم والأفاق لعهد في عصر الثلاثين والثلاثمائة (٩٤١م) غرباً وشرقاً وذكر نحلهم وعوائدهم ووصف البلدان والجبال والبحار والممالك والدول وفرّق شعوب العرب والعجم فصار أماماً للمؤرخين يرجعون اليه واصلاً يعولون في تحقيق الكثير من اخبارهم .....".

وقد تقدم هذا العلم وتابع فيه العلماء جهودهم حيث ظهر ابن حوقل حيث يقول : "قد عملت كتابي هذا بصفة اشكال الأرض ومق دارها في الطول والعرض وأقاليم البلدان ومحل الغامر منها والعمران من جميع بلاد الاسلام بتفصيل مدنها وتقسيم ما تفرد بالأعمال المجموعة اليها وقد جعلت لكل قطعة افردتها تصويراً وشكلاً يحكى موضوع ذلك الأقليم ثم ذكرت ما يحيط به من الأماكن والبقاع وما في اضعافها من المدن والاقصاع وما لها من القوانين والارتفاع وما فيها من الأنهار والبحار وما يحتاج الى معرفته من جوامل ما يشتمل عليه ذلك الأقاليم من وجوه الاموال والجبايات والاعشار والخراجات والمسافات في الطرقات وما فيه من المجالب والتجارات ، إذ ذلك علم يتفرد به الملوك والساسة وأهل المروءات والسادة من جميع الطبقات".

ومثل هذا يصدق على البيروتي الذي رافق السلطان محمود الغزيوي في حملته على الهند سنة ١٠٠٠م ونشر ما شاهده في بلاد السند وشمال الهند وحاول البيروتي ان يصحح خريطة تلك البلاد مستنداً الى حسابه الفلكي.

وكذلك ابو الحسن الفلكي وابن بطوطة الذي بدأ بسياحته سنة ١٣٢٥م وبلغت سياحته أربعاً وعشرين سنة مسافراً من مدينة طنجة المراكشية ومجولاً في أفريقية

ومصر وفلسطين والعراق وشمال جزيرة العرب الى مكة وفي روسية الجنوبية والقسطنطينية ... الخ والذي ذهب الى بلاد الهند ماراً من بخارى وخراسان وقندهار فبلغ مدينة دهامي التي كانت من العواصم الاسلامية والتي أوفده سلطانها الى عاهل الصين فأنتهى الى بلاد الصين بحراً وقد زار في طريقه الى الصين سيلان وسومطرة وجاوة ووصل الى المدينة التي تعرف ببيكين في الوقت الحاضر ثم عاد الى وطنه بطريق البحر.

### التقدم الذي حققه العرب في الجغرافية :

ولقد حقق علماء المسلمين تقدماً كبيراً في علم الجغرافية مما يشهد له ما دونوه في كتبهم وما وصلوا إليه من حقائق وما صححوه من قضايا عند "بطليموس" وغيره وما توصلوا إليه اليونان قبلهم وهكذا نجد "لوبون" يلخص ذلك فيقول :-

كان من نتائج ربادات العرب ومعارفهم الفلكية التي ذكرتها ان اتفق لعلم الجغرافية تقدم مهم ، ولا غرو فالعرب الذين اتخذوا في البداءة علماء اليونان ولا سيما "بطليموس" ادلاءهم في علم الجغرافية لم يلبثوا أن فارقوا اساتذتهم فيه على حسب عاداتهم.

كانت مواضع المدن لكثيرة التي عينها "بطليموس" تعييناً جغرافياً غير مطابقة ... للحقيقة تماماً وبلغ مقدار غلطة في تعيين طولالبحر المتوسط وحده أربعمئة فرسخ. ويكفي أن نقابل بين الأمكنة التي عينها والأمكنة التي عينها العرب ليظهر لنا مقدار التقدم الذي تم على يد العرب فهذه المقابلة تدل على أن مقدار العرض الذي حققه العرب يقرب من الصحة مما لا يزيد على بضع دقائق وان خطأ الأفارقة بلغ درجات كثيرة. حقاً ان أغاليط الاغارقة في تعيين الطول كانت فاحشة في بعض الأحيان ومنها أن غلط بطليموس الذي أتخذ الاسكندرية مبدءاً للطول في طول طنجة نحو ١٨ درجة فجعله ٥٣ درجة و ٣٠ دقيقة بدلاً من ٣٥ درجة و ٤١ دقيقة ومنها ان جعل بطليموس في تقاويمه طول المحور الكبير للبحر المتوسط الممتد من طنجة الى طرابلس الشام تسع عشرة درجة زيادة على الحقيقة أي ما يعادل أربعمئة فرسخ تقريباًمع ان غلط تقاويم العرب فيه أقل من درجة واحدة .

وكتب العرب التي انتهت إلينا في علم الجغرافية مهمة للغاية وكان بعضها اساباً لدراسة هذا العلم في أوربة قروناً كثيرة.

ويذكر من الجغرافيين النضر البصري الذي ألف كتابه سنة ٧٤٠م والاصطخري في كتابه الأقاليم أواسط القرن التاسع من الميلاد والمسدودي والمقدسي ٩٨٥م. واشهر جغرافي العرب هو الإدريسي ومن كتب الإدريسي التي ترجمت الى اللاتينية تعلمت أوروبا علم الجغرافية في القرون الوسطى. ولد الإدريسي في الأندلس ثم ساقط الإدريسي مغامرات كثيرة الى بلاط ملك صقلية "روجر" بعد أن استولى النورمان عليها بزم من قصير. ولما كانت سنة ١١٥٤م ألف الإدريسي كتابه الجغرافي العظيم مشتملاً على ما قيده المتقدمون في علم الجغرافية وعلى ما رواه عن السياح من المعارف الكثيرة وعلى عدة خرائط فاقتصرت أوروبا على نسخة بدناءة مدة ثلاثة قرون.

وخريطة الإدريسي التي نشرت صورتها والتي أشتملت على منابع النيل والبحيرات الاستوائية أي على هذه الاماكن التي لم يكتشفها الأوربيون إلا في العصر الحاضر أكثر خرائطه طرافة فهي تثبت أن معارف العرب في جغرافية أفريقية أعظم مما ظن زمناً طويلاً.

وأذكر من جغرافي العرب القزويني وياقوت الحموي اللذين عاشا في القرن الثالث عشر من الميلاد وان كتاب هذا الأخير معجم جغرافي حافل بوثائق عن جميع البلدان التي تتألف منها دولة الخلافة. وعرف صاحب حماه وابو الفداء (١٣٧١-١٣٣١م) بأنه من علماء الجغرافية أيضاً. ويحتاج احصاء أهم جغرافي العرب وما ألفوا من الكتب الى بيان طويل فقد ذكر أبو الفداء وحده أسماء ستين عالماً جغرافياً من الذين ظهوروا قبله<sup>(٥)</sup>.

ويذكر ما يكمن في نفوس بعض الغربيين من حقد موروث وكراهية للعرب والمسلمين ما جعلهم ينكرون فضل العرب في الجغرافية وغيرها وانما يهدفون في ذلك الى جعل المسلمين يشعرون بعدم الأصالة العلمية في تاريخهم ويغنون من ذلك الى التأكيد على تبعية الشرق الإسلامي في كل شأن فيقول:-

وتكفي الخلاصة السابقة لا ثبات شأنهم مع ذلك ولولا أصرار الأوربيين الخاص على مبتسراتهم الموروثة التي لا تزال باقية حيال الاسلام لتعذر ايضاح السبب في انكار علماء افاضل في الجغرافية كمسيو "فيفيان دوسان مارتن" لذلك الشأن ومع ذلك يكفي مااتي به العرب من عمل كبير لأثبات قيمتهم<sup>(٦)</sup>.

ويوضح ثمرات علماء المسلمين مما لم يصله العلماء من أقوام آخرين لشاهد على فضلهم "فالعرب هم الذين انتهوا الى معارف فلكية مضبوطة من الناحية العلمية عدت

أول - أساس للخرائط فصَحَّحُوا أَغَالِيطَ الْيُونَانِ الْعَظِيمَةَ فِي الْمَوَاضِعِ وَالْعَرَبِ مِنْ نَاحِيَةِ الرِّيَادَةِ هُمَ الَّذِينَ نَشَرُوا رِحَالَاتٍ عَنْ بَقَاعِ الْعَالَمِ الَّتِي كَانَ يَشْكُ الْأُورِيبِيُّونَ فِي وَجُودِهَا فَضْلاً عَنْ عَدَمِ وَصُولِهَا إِلَيْهَا الْعَرَبِ مِنْ نَاحِيَةِ الدِّبِ الْجُغْرَافِيِّ هُمَ الَّذِينَ نَشَرُوا كُتُباً قَامَتِ مَقَامَ الْكُتُبِ الَّتِي أَلْفَتَ قَبْلُهَا فَأَقْتَصَرَتْ أُمَمُ الْعَرَبِ عَلَى اسْتِنْسَاحِهَا قُرُوناً كَثِيرَةً" (٧) .

### المستشرقون الروس والدراسات الجغرافية:

لقد أبدى المستشرقون الروس اهتماماً ظاهراً في الدراسات الجغرافية خاصة كما كان لهم اهتمام ظاهر في جميع المخطوطات ونشرها وقد اكتشفوا مخطوطات نادرة في العلوم الجغرافية وغيرها فمن تلك المخطوطات "مخطوطة فريدة للجغرافي العربي اليعقوبي يرجع تاريخها إلى القرن التاسع الميلادي وهي نسخة وحيدة معروفة حتى الآن" (٨) .

ولقد كان لهم نشاط علمي في الدراسات الجغرافية حيث أنشأ البارون (روزن) مدرسة استشرق جديدة في روسيا "وقد كرّس هذا المستشرق الكبير أبحاثه عن البكري عالم الجغرافية العربي وكذلك الرحالة المعروف ابن فضلان" (٩) .

### المستشرقون الروس والدراسات الإسلامية :

البارون (روزن) المستشرق الروسي والجغرافية وغيره:

لقد أبدى الروس اهتماماً ظاهراً في الدراسات الجغرافية خاصة بعد أن كان لهم اهتمام ظاهر في جميع المخطوطات العربية ونشرها (الأمر الذي ترتب عليه اكتشاف مخطوطات نادرة نذكر منها اكتشاف مخطوطة فريدة للجغرافي العربي اليعقوبي يرجع تأليفها إلى القرن التاسع وهي نسخة وحيدة معروفة حتى الآن) (١٠) .

وفي نهاية القرن التاسع عشر بدأ البارون (روزن) نشاطه العلمي مؤسساً لمدرسة استشرق جديدة في روسيا ، وقد كرّس هذا المستشرق الكبير أبحاثه عن البكري عالم الجغرافيا العربي وكذلك الرحالة المعروف ابن فضلان (١١) .

ولم يصدر عنهم في ظل النظام الجديد البلشفي فيما يخص الإسلام إلا ما أصدره (بارنولد) ففي مجال الدراسات عن تاريخ العالم العربي واقتصادياته امتازت السنوات العشرينيات من هذا القرن بصدور ثلاثة مؤلفات للأكاديمي (بارنولد) تحمل عناوين (الإسلام) و (الثقافة الإسلامية) و (العالم الإسلامي) (١٢) . كما وضع (بارنولد) عدة

أبحاث درس فيها المرحلة التاريخية التي رافقت ظهور الاسلام في شبه الجزيرة العربية.

ومن لهم اهتمام بما يتعلق بالاسلام والمسلمين "بيليايف" و "ياكوبوفسكي" حيث ألف بيليايف:-

١- العرب والاسلام .

٢- الخلافة العربية.

وكتب (ياكوبوفسكي) بحثاً تناولت موضوع الاتصالات بين الشعوب السلافية والعالم العربي .

وكذا كتب المستشرق الروسي المعروف "فليشتنسكي" كتابه (النهضة الاسلامية) الذي يبين فيه ان حركة النهضة الاسلامية في نهاية القرون الوسطى مرت بمراحل متشابهة لحركة النهضة الأوروبية وان هناك تشابهاً ملحوظاً في المعالم التي تميز تطور الثقافة العربية والثقافات الأخرى في تلك المرحلة التاريخية. وقد ذكر (فومتشوف) اسماء بعض المستشرقين الكبار أمثال (يوشمانوف) الذي أنجز من الأعمال العلمية الكبيرة في مجال دراسة اللغات السامية والعربية بوجه خاص.

### استخدام البوصلة في الملاحة:

لو استقينا علوم المسلمين وأطلعنا على كل المخطوطات العربية لوجدنا للمسلمين فضلاً عظيماً في مجالات علمية متعددة ورغم ان البوصلة على ما يذكر من اختراع الصينيين. لكن الثابت ان العرب أول من استخدم تلك البوصلة في الملاحة ، يقول "لوبون"<sup>(١٥)</sup> "البوصلة من اختراع الصينيين ولكنه لم يقم دليل على استخدامهم لها في الملاحة وكان الصينيون من ضعاف الملاحين ولم يتعدوا في أسفارهم البحرية عن الشواطئ فكانت البوصلة قليلة النفع لهم.

وغير ذلك كان شان العرب الذين هم من أعظم الملاحين والذين كانت صلاتهم ببلاد الصين الواسعة كثيرة أيام شك الأوروبيون في وجودها فكان من الراجح ان يكون العرب أول من استخدم البوصلة في الملاحة ولكن هذا لا يخرج عن حد الافتراض الذي لا يجوز الاصرار عليه لعدم قيامه على دليل.

وانما الذي فيه هو أن الأوروبيين أخذوا هذا الاختراع المهم عن العرب الذي كانوا وحدهم ذوي صلات بالصين والذين كانوا وحدهم قادرين على اطلاع الغرب عليه ، لهذا السبب ومع ذلك فقد مرّ بعض الزمن على الأوروبيين قبل ادراك فائدته فالأوروبيون لم يستخدموه قبل القرن الثالث عشر الميلادي مع أن الأديسي الذي تكلمنا عنه في أواسط القرن الثاني عشر من الميلاد ذكره على انه كثير الشويع بين بني قومه.

## الهوامش

- ١- العنكبوت : الآية ٢٠.
- ٢- التوبة : الآية ١١٢.
- ٣- آل عمران : الآية ١٩٠-١٩١.
- ٤- وسمى سارتن النصف الأول من القرن العاشر باسم المسعودي المؤرخ والجغرافي "بليئوس العرب" والنصف الثاني باسم ابي الوفاء الفلكي الرياضي. وكان هذا القرن عصر نشاط فلسفي عظيم وكان امام فلاسفة العصر الفارابي(العالم الغربي ص ٦٤).
- ٥- لوبون ، ص٤٦-٤٧١.
- ٦ و ٧- المصدر السابق ، ص٤٧١.
- ٨- الدراسات العربية والاسلامية في بعض البلاد الأوربية / محاضرات أُلقيت على طلبة دبلوم الدراسات العربية والاسلامية / جامعة بيروت العربية/ ص٢١.
- ٩- المصدر السابق ، ص٢٤.
- ١٠- الدراسات العربية والاسلامية في بعض البلاد الأوربية / محاضرات أُلقيت على طلبة دبلوم الدراسات العربية والاسلامية / جامعة بيروت العربية/ ص٢١ (الدراسات العربية الاسلامية الاتحاد السوفيتي للاستاذ فلاديمير فومتشوف).
- ١١- المصدر السابق ص٢٤.
- ١٢- ف.ف. بارتولد "عالم الاسلام" بطرسغراد ١٩٢٢.
- ١٣- ي.أ. بيلياف (العرب والاسلام والخطة العربية) ، وسكو ١٩٦٥.
- ١٤- ياكوبوفسكي (ابن مسكويه عن حملة الروسي في يرصنع ٩٣٢-٩٤٣/٩٤٤ لينغراد ١٩٢٦.
- ١٥- لوبون ، ص٤٨٣-٤٨٤.

## مراجع البحث

- ١- القرآن الكريم .
- ٢- مختصر ابن كثير - محمد علي الصابوني / الرياض.
- ٣- تفسير البضاوي.
- ٤- فتح الباري في شرح صحيح البخاري.
- ٥- شرح صحيح مسلم للنووي .
- ٦- سنن أبي داود.
- ٧- أحكام القرآن - للإمام القرطبي والمالكي.

## المصادر

- ١- اعجاز القرآن - مصطفى صادق الرافعي.
- ٢- مناهج الأدلة لأبن رشد.
- ٣- الدراسات العربية والاسلامية في بعض البلاد الأوروبية / جامعة بيروت العربية، طبع في دار الأحد (البحيري أخوان) بيروت.
- ٤- نظرات استشراقية في الاسلام - محمد غلاب (دار الكتاب - القاهرة).
- ٥- موسوعة المستشرقين ، د. عبدالرحمن بدوي.
- ٦- القرآن - محمد صبيح (ط. مصر ١٩٣٩).
- ٧- العقيدة والشريعة في الاسلام ، يوسف موسى وزميله (ط. مصر ١٩٤٨).
- ٨- مذاهب التفسير الاسلامي - كولد تسيهر.
- ٩- فجر الاسلام ، أحمد أمين.
- ١٠- التفسير والمفسرون ، محمد حسين الذهبي (ط. دار الكتب الحديثة / القاهرة).
- ١١- مناهج المستشرقين - المنظمة العربية للتربية والعلوم / الرياض.
- ١٢- الشعر والشعراء - لأبن قتيبة.
- ١٣- اسلاميات العقاد.
- ١٤- الوحي المحمدي - محمد رشيد رضا.



- ١٥- الاسلام والرأسمالية / مكسيم رورنسون / ترجمة نزيه الحكيم / دار الطليعة / بيروت ١٩٦٨.
- ١٦- علوم الحديث - د. عبدالكريم زيدان ، د. عبدالقهار داود العاني / مطبعة جامعة بغداد ١٩٨١.
- ١٧- الاسلام في غزوة جديدة للفكر الانساني - انور الجندي / المجلس الأعلى للشؤون الاسلامية / القاهرة - دار الكتاب / ١٣٨٤هـ ، ١٩٦٤م.
- ١٨- حاضر العالم الاسلامي - تبور استرارد / ترجمة عجاج نويهض / تقديم وتعليق المير شكيب أرسلان / دار الفكر - بيروت.
- ١٩- العالم العربي / المؤلفة الأمريكية الجنسية - العربية الأصل - د. نجلاء عزالديم الدحاني / تقديم وليم ارنست هوكنج / تصدير حسن جلال بوطرسي / عيسى البابي الحلبي وشركاه / القاهرة / مؤسسة فرانكلين للطباعة والنشر.
- ٢٠- حضارة العرب - د. غةستاف لوبون / ترجمة عادل زعيتر / نشر عيسى البابي الحلبي وشركاه.
- ٢١- الموافقات للامام الشاطبي .
- ٢٢- خلاصة تاريخ الأندلس / للأمير شكيب أرسلان.
- ٢٣- المستشرقون - د. نجيب عقيقي.
- ٢٤- الاستشراق والدراسات الاسلامية - د. عبدالقهار داود العاني .
- ٢٥- دراسات في علوم القرآن - د. عبدالقهار داود العاني.
- ٢٦- الاستشراق أهدافه وآثاره / المؤتمر العلمي للأستشراق / كلية الفقه / جامعة المستنصرية / بغداد ١٩٨٦.
- ٢٧- التبشير والاستعمار - عمر فروخ ، ومصطفى الخالدي.
- ٢٨- الفكر الاسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي.
- ٢٩- ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين / ابو الحسن علي الحسن الندوي.
- ٣٠- السنّة ومكانتها في التشريع الاسلامي / د. مصطفى السباعي.